كان النبي صلي الله عليه وسلم افصح الناس واسباب فصاحته وبلاغته

Prophet Muhammad the most Eloquent person and the reason of His Fasahat and Balaghat

*مُحَمَّد سرور ساجد

** شفقت ناهيد

ABSTRACT

Allah Almighty has sent more than 124 000 Prophets and Messengers to guide his people in this world. As it is human nature that belives in the visible things Allah Almighty bestowed His Prophets such miracle that matches the trends of that time society. In the era of Hazrat Moosa ﷺ there was trend of magic so Allah Almighty gave Hazrat Moosa ﷺ such miracles that made him dominant on all the magicians small and big ones also in this way people admitted his prophethood believed in Allah almighty and and the teachings were presented by Prophet of Allah Moosa ﷺ.And in the era of Hadrat Essa ﷺ Allah gave him the miracle related to medical fields.

The great Fasahat and Balaghat was given to the Prophet ﷺ for all this has many factors that are part of it. So in the text below we will examine the factors which are the reasons for the Fasahat and Balaghat of the Prophet ﷺ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين،وعلى آله وصحبه أجمعين..وبعد فان الله تعالي بعث الانبياء والرسل لهداية الناس و تعليم وتربية الاخلاق و لابلاغ الرسالة من الله تعالي و قد اعطي الله تعالي اسباب مساعدة لحصول هذه المقصد العظيم،ولقد اعطي الله عزوجل معجزات لرُسُله حسب زمانهم كما اعطي موسي معجزات يغلب بها علي ساحرين عند المقابلة و اعطي عيسي بن مريم معجزات حسب زمانه كما زمان عيسي عليه الصلوٰة والسلام هو زمان الطب فقد اعطي عسي بن مريم معجزات حسبها كما هو يشفي الاكمه والابرص و يحي الموتي باذن الله تعالي و يخزهم الناس بما اكلوا وما شربوا وما وضعوا في بيوتهم وفي زمان النبي مُحَمَّد صلي الله تعالىٰ عليه وسلم كان بلاغة الكلام و فصاحته يعد امزا مهما ومن الذي يملك هذه الملكة كان يعد شخصا عظيما. و ان العرب قد يعظمون المرتبة الذين اصحاب الفصاحة والبلاغة من الشعراء والخطباء

* الباحث بمرحلة الدكتوراة قسم اللغة العربية الجامعة الاسلامية بهاول بور

** الباحثة بمرحلة الدكتوراة قسم اللغة العربية الجامعة الاسلامية بهاول بور

. و يجعلون الشعراء والخطباء سيد قومهم و حكمهم . وان الجملة الواحدة من الشاعر قد يرفع درجة شخص مجهول و ان الشخص الشهير قد انهدم شهرته بالهيهجاء المشتملة علي جملة واحدة.

وان النبى الامي ﷺ ولد و نشأ فى قوم و زمن صناعتها البلاغة والبيان وان الفصاحة والبلاغة أكبر أمرهم عندهم،والكلام البليغ اهمّ عمل من اعمالهم ولقد حمل النبي الكريم صلي الله عليه وسلم لواء الرسالة العظيمة لينذر الناس جميعاً عن اخلاق الرزيلة ويحثهم علي الاعمال الصالحة والاخلاق العالية،ويرغبهم الي فلاح الدارين ،و يعلمهم مسائلهم المتعلقة من العبادات و المعاملات ومن هنا فلابد من الاهتمام المناسب ليؤد هذه الأمانة العظيمة علي وجه مؤثر ولابد من كثرة الأسباب،وتهيئه الظروف التى تساعد على أداء هذه المهمة العظيمة الجسيمة،وهى هداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ولأجل ذلك كانت هناك عوامل وأسباب أثرت فى فصاحته و بلاغته ﷺ وسأكتفى هنا بالإشارة إلى أبرزها حسب الترتيب بين هذه العوامل فى حياته ﷺ.

نشأة النبي عندطفولته صلي الله عليه وسلم

وهذا الوجه له أثر كبير فى بلاغة الرسول الكريم ﷺ فاكتساب ملكة المنطق واللغة منحصرة للطبيعة الميسرة والمخالطة والمحاكاة مع الناس الفصحاء والنبى ﷺ نشأ عاش عند طفولته فى أفصح القبائل وأخلص القبائل منطقاً وأحسنها بياناً فكان مولدالنبي صلي الله عليه وسلم فى بنى هاشم وأخواله فى بنى زهرة ورضاعه فى بنى سعد ومنشؤه فى قريش ومتزوجه فى بنى أسد ومهاجرته إلى بنى عمرو وهم الأوس والخزرج من الأنصار لم يخرج عن هؤلاء فى النشأة واللغة ولقد كان فى قريش وبنى سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة ولقد جاء فى الحديث: " أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر " [1]

وبنو سعد بن بكر كانوا من العرب الضاربة يعيشون حول المكة المكرمة وكان أطفال القرشيين يتبدون فيهم وفى غيرهم يحصلون من ذلك نشأة الفصاحة[2] والرواة جميعاً على أن بنى سعد بن بكر خصوا من بين القبائل بالفصاحة والبيان. و مهارة النطق الفصيح و معاملة من الناس و يرعون الاغنام و البقوات و ينطقون بنطق فصيح و بليغ بطريق جيد.

وهذا الجانب من حياته صلى الله عليه وسلم لم يطعن فيه مشرك من المشركين لأنهم يعلمون نشأته وفصاحته لأنه لم يخرج من بين أظهرهم ولا جلا عن أرضهم ففصاحته.معلومة للخاص والعام منهم وولادته ونشأته مما لا يخفى على أحد ؛ ولهذا لم يجدأعداء الإسلام مغمزاً يطعنون به فى بلاغته وفصاحته لأنهم

[1]. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت حديث 2276ج4 ص 1782

[2]. إسماعيل حقي بن مصطفى ،روح البيان، الناشر: دار الفكر – بيروت ج 6 ص4٠4

كانوا يعلمون أنه على حد الكفاية فيهما . ولكن هل النشأة وحدها كافية فى أن يصل المرء إلى أعلى درجات الفصاحة ويتربع على قمة البيان البشرى ؟ بالطبع لا ؛ لأن هذا الجانب يشاركه فيه ﷺ كثير من الفصحاء والبلغاء أمثال : قس بن ساعدة وأمية بن الصلت ولبيد بن ربيعة وغيرهم من الفصحاء والشعراء ولكن لم يصل أحدهم إلى هذا المستوى من الفصاحة والبلاغة ولذلك فلابد من وجود أسباب أخرى لبلاغته ﷺ غير النشأة واللغة لابد من وجود سبب آخر لهذه البلاغة ساهم فى إعلاء شأنها ورفع ذكرها إلى هذا المستوى من البيان وهو السبب التالى..

الفطرة السليمة والإعداد من الله تعالىٰ

ويبدو لى أن الفطرة النقية والإعداد الربانى والاصطفاء مما ساهم فى بلاغته ﷺ وسأجمع بين هذه الأسباب فى الكلام ؛ لأن الربط بين هذه الأمور من الأهمية بمكان فى بيانه ﷺ وسأفصل فى هذه الناحية بعض التفصيل لهذا السبب ؛ ولأن لهذه الناحية مدخلاً فى رسالته ﷺ وسأتناول هذه الناحية حسب الترتيب التاريخى فى حياته ﷺ مع الإيجاز فلقد أشار النبى إلى هذا الاصطفاء فقال :

"إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم " [1]

ولنبدأ فى بنى سعد حين أخذت الحبيب ﷺ حليمة السعدية ورأت فى حياتها وفى قومها من البركة والخير والسعة ما لم تر من قبل وهنا وقع حادث شق صدره ﷺ.

فلقد روى مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء فقال : هذا حظ الشيطان منك ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – أى ظئره – فقالوا : إن مُحَمَّداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر المخيط ﴿

[1]. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج صحيح مسلم بشرح النووى 217,216/2

الإبرة ﴾ فى صدره وهذه الحادثة لشق الصدر يكملها ما روته حليمة السعدية حيث قالت : " فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفى بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه قالت : فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يا بنى قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعانى وشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً لا أدرى ما هو . قالت : فرجعنا به إلى خبائنا "[1]

"ولقد وقع حادث شق الصدر هذا فى السنة الرابعة أو الخامسة من مولده ﷺ " وهذا الحديث وأمثاله مما يجب فيه التسليم ولا يتعرض له بتأويل من طريق المجاز والاتساع ؛ إذ لا ضرورة فى ذلك ؛ إذ هو خبر صادق مصدوق عن قدرة القادر . ويجدر بى هنا أن أنقل ما ذكره الطيبى حول قول جبريل : " هذا حظ الشيطان منك " لأنه متصل بما نحن بصدده تمام الاتصال . يقول : " قيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم لما كان بشراً متعلقاً عما انعلق عنه سائر البشر ولا ينكر ذلك لقوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ... ﴾ [2] والعلقة فى الإنسان أصل المفاسد ؛ ولهذا قال جبريل بعدما أخرجها : " هذا حظ الشيطان منك "[3]فعصمه من آفته وطمعه كما أسلم له شيطانه على يده قدر الله فى سابقة لطفه أن يخرج حظ الشيطان منه فجعله قدسياً طاهر الأصل والعنصر منور القلب مقدس الجسم مستعداً لقبول الوحى السماوى والفيض الإلهى لا يتطرق إليه هواجس النفس " وإذا خطونا خطوة أخرى نحو مكة نجد أن عبد المطلب جد النبى ﷺ كان يشعر بتميز النبى من سائر الناس فلقد روى ابن هشام " أنه كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه

[1]. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ،شرح امام نووي لمسلم شريف ,ج 15ص36

[2]. سورة الكهف : 110

[3]. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت إ حديث261 ج1 ص147

يجلسون حول فراشه حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له فكان رسول الله يأتى وهو غلام جفر فيجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأناً ثم يجلس معه على فراشه ويمسح ظهره ويسره ما يراه يصنع " وهذا التميز والاصطفاء والفطرة النقية قد لاحظها أبوطالب أيضاً فلقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم فى قحط فقالت قريش : يا أبا طالب أقحط الوادى وأجدب العيال فهلم فاستسق فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قثماء حوله أغيلمة فأخذه أبوطالب فألصق ظهره بالكعبة ... فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق واغدودق وانفجر الوادى وأخضب النادى والبادى[1]

وإلى هذا أشار أبوطالب حين قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل ومما يتصل بالإعداد الربانى ما رواه ابن الأثير أنه ﷺ قال : " ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبينه ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله برسالته . قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى الغنم بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب فقال : أفعل فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار مكة سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت بمكة فأصابنى مثل أول ليلة ثم ما هممت بسؤ "[2]

[1]. مسلم شريف حديث162 ج1 ص147

[2]. ابو محمّد عبد الملك بن هشام بن ايوب حميري المعروف بابن هشام، السيرة النبوية،تحقيق عمر عبدالسلام تدمري،الناشر:دارالكتب العربية،بيروت ج 1ص168

وإذا خطونا خطوة أخرى فى مرحلة شبابه ﷺ لنرى مظاهر الفطرة النقية و العناية الربانية فنصل إلى بناء الكعبة فلقد روى البخارى فى صحيحه من حديث جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما قال : " لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ وعباس ينقلان الحجارة فقال عباس للنبى ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال : " إزارى فشد عليه إزاره " وفى رواية " فما رؤيت له عورة بعد ذلك " [1]

ن هنا خصوصية للنبى ﷺ ومظهر من مظاهر العناية الربانية لأنه قد جاء فى بعض الروايات أنه نودى" استر عورتك"[2] ولقد كان سن الرسول وقتها خمساً وثلاثين سنة " [3] ولنصل إلى صواب الرأى النابع من الفطرة النقية والعناية الإلهية فبعد أن جددت قريش بناء الكعبة وبلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه واستمر النزاع أربعة ليالٍ أو خمساً واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين رضيناه هذا مُحَمَّد وهنا نلاحظ أن النبى ﷺ كان معروفاً ومشهوراً بالأمانة والصدق بينهم قبل أن ينزل عليه الوحى كما صح فى الأحاديث ولما انتهى إليهم و أخبروه الخبر طلب رداءً فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه فى مكانه وهذا حل حصيف رضى به القوم [4] ولنخط خطوة أخرى قبيل نزول الوحى عليه ﷺ فلقد حبب إليه الخلاء وكان يخلو بنفسه فى غار حراء [5] فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء وهذا التعبد قبل النبوة من صفاء الفطرة ونقائها ومن التفكر والتأمل فى الكون والانقطاع عن مألوفات البشر فى هذه الخلوة وله أكبر الأثر فى خشوع القلب وصفاء الذهن واستنارة القلب بنور الغيب.

[1]. مختصر سيرة الرسول للشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب ص 51

[2]. مختصر سيرة الرسول للشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب ص 51

[3]. مُحَمَّد بن عبدالله خطيب تبريزي،مشكاة المصابيح،الناشر:مكتبة رحمانية ،لاهور حديث،5846، 1158

[4]. السيرة النبوية لابن هشام 197,196/1, ومختصر سيرة الرسول ص 51

[5]. شرح الطيبى على مشكاة المصابيح 65,64/11

ولقد لاحظت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها – وهى الزوجة الوحيدة التى كانت مع النبى قبل النبوة وبعدها بفترة من الزمن – لاحظت هذه الفطرة النقية فيه قبل النبوة ولاحظت هذا الاصطفاء من الله فقالت لما أخبرها النبى ﷺ بخبر الوحى فى الغار :" كلا والله لا يخزيك الله أبدً إنك لتصل الرحم و تصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق "" ولقد قال أبو سفيان لهرقل لما سأله هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا وهل يغدر ؟ قلت : لا "

فهذه الشواهد والحقائق التاريخية الصحيحة الثابتة يتضح لنا من خلالها صفاء الفطرة النبوية ونقاءها وتتجلى لنا من خلالها العناية الإلهية و يتجلى الإعداد الرباني والاصطفاء للنبى ﷺ وهذا كله مما أثر فى بلاغته ﷺ

اثرنور القرآن الكريم في فصاحته و بلاغته:

لقد اختارالله مُحَمَّداً ﷺ من بين آلاف الفصحاء من قومه ليعجزهم بفصاحة القرآن ووكل إليه أن يفسر كتابه ويبين وحيه حين قال فى محكم التنزيل : ﴿...وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ [1] وحين قال: ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ [2] وحين قال : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ [3] إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بعمل الرسول فى الإبلاغ والتبيين والهداية والتوجيه ... ولقد مكن الله لنبيه فى منبته ونفسه بما بهر به العقول إقناعاً وإفحاماً ... ولقد أخذت آيات القرآن تتوالى فكانت الإجابة الشافية لكل ما جاش فى صدره من خواطر وفتح الرسول عينيه على هذا البيان الهابط من أرفع سماوات فإذا به ينقذه من حيرته ويجيب على أسئلته ويؤيد وجهة نظره فى الحياة والأشياء ألم يكن النبى ﷺ ينأى عن الأصنام ؟ لقد نزل بيان السماء بتحريم عبادة الأصنام ألم يكن يشيح عن العصبية الحمقاء والتعالى بالانساب ؟ لقد نزل بيان السماء بأن الناس من أصل واحد من ذكر وأنثى . إن العناية التى استخلصته لرسالة السماء قد طبعت حياته بطابع السماء حتى إذا جاء زمان الدعوة صادف القرآن نفساً ظامئة وقلباً تائقاً وروحاً متطلعاً فروى الظمأ وشفى الغليل وكان ذلك كله التفسير الصادق لقول الله : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ [4] ... ولقد كانت معانى النبى ﷺ فى إرشاداتها ربانية وكانت ألفاظه معرضاً رائعاً لمعانيه ؛ إذ كان القرآن أستاذ معانيه فإن أثره عليه عظيم جليل فكان القرآن يثبته بمثل قوله:﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن

---

[1]. (النحل : 44)

[2]. (مريم : 97)

[3]. (آل عمران : 164)

[4]. (الضحى : 7)

الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً * وإن كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً * سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ [1] وكان يثنى عليه أعظم الثناء قال تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [2] إلى آخر ما جاء فى القرآن من حديث عن النبى ﷺ ولو مكثنا نعدد المواضع التى جاء فيها ذكر النبى ﷺ صراحة وإشارة لضاق بنا المقام ولخرجنا عن مقصود البحث.

وكما أثر القرآن فى النبى ﷺ فى هذه الناحية أى ناحية التوجيه والإرشاد والهداية والتثبيت إلخ أثر أيضاً فى بيانه أعظم الأثر فمثلاً ضرب الأمثال شائع فى القرآن الكريم ؛ وذلك لما للمثل من أثر فى توضيح المعقول بالمحسوس وتقريب الأمور وتوضيحها وترسيخها فى الأذهان [3] نجد النبى ﷺ قد سلك هذا المسلك فى دعوته وفى بيان أمور الدين وبيان خصال الخير التى يحبها الله من إنفاق فى سبيله وذكر له كما ضرب الأمثال لخصال الشر التى لا يحبها الله مثل : النفاق والبخل ومجالسة الجليس السوء والذى لا ينتفع بالعلم ولا ينفع غيره إلخ [4]

وسأوضح هذه الناحية بمثالين من أمثال القرآن مع ذكر ما يقابلهما فى الهدف من البيان النبوى ومن ذلك الإنفاق فى سبيل الله حيث يقول تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ [5]

التمثيل للأضعاف كأنها ماثلة بين عينى الناظر" [6] وفى ذات الموضوع وهو الإنفاق يقول ﷺ : [1]" مثل البخيل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما فجعل

---

[1]. متفق عليه من حديث ابن عباس . المشكاة ح (5861) 74/11- 77

[2]. (القلم : 4)

[3].البيان النبوى ص 53- 70

[4]. الزمخشري؛ محمود بن عمر بن مُحَمَّد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الناشر: دار المعرفة،بيروت/338,

[5]. (البقرة :261)

[6]. ابن قيم الجوزية؛ مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين،الأمثال فى القرآن،المحقق: سعيد مُحَمَّد نمر الخطيب،دار المعرفة،بيروت ص253-258

المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه والبخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها " أوقع فى الحديث المتصدق مقابلاً للبخيل والمقابل الحقيقى هو السخى إيذاناً بأن السخاوة هى ما أمر به الشرع وندب إليه من الإنفاق لا ما يتعاطاه المبذرون " [2]

وقال ﷺ : " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل " [3] بل نجد فى بعض الأحاديث يصدر الأمثال بنفس اللفظ الذى يستعمله القرآن

فمثلاً الفعل " ضرب " يأتى فى بداية بعض الأمثال القرآنية ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كلّ على مولاه أينما يوجهه لا يأتى بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ [4] نراه ﷺ يأتى فى صدر بعض الأحاديث بهذا الفعل " ضرب " مع إسناد ضرب المثل إليه سبحانه ومن ذلك قوله ﷺ : " ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ... " الحديث وهذا المثل النبوى فيه إشارة إلى أكثر من آية من كتاب الله فقوله " وعن جنبتى الصراط سوران " فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ... ﴾ [5] وفى الحديث إشارة إلى المحارم التى لمح إليها قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ... ﴾ [6] وهذا مثال فيما يتعلق بجانب الأمثال وضربها اتضح من خلاله أثر الأمثال القرآنية فى الأمثال النبوية وسيأتى تفصيل لهذه الناحية فى الفصل التالى وهو التفسير النبوى للقرآن.

---

[1]. متفق عليه من حديث أبى هريرة ' مشكاة المصابيح ح (1864) 89/4

[2]. شرح الطيبى على المشكاة 89/4

[3]. متفق عليه من حديث أبى هريرة . المشكاة ح(1888) 110/4

[4]. (النحل : 75, 76)

[5]. (الأنعام : 153)

[6]. (الأنعام : 151)

وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : فيه مبشر ابن عبيد . متروك وذكره العراقى فى تخريج الإحياء والعجلونى فى كشف الخفاء بلفظ :" أنا أعرب العرب" [1]

قال الرافعى رحمه الله : " ولا يزال كبراء مكة يرسلون أحداثهم إلى أماكن هذه القبائل من البادية وخاصة إلى قبيلة عدوان فى شرق الطائف وهى قريبة من بنى سعد وإنما يطلبون بذلك إحكام اللهجة العربية وصحة النشأة وحرية النزعة وما إليها مما هو الأصل فى هذه العادة التى يتوارثونها فى التربية من قديم . [2]

ميزات فصاحة النبي صلي الله عليه وسلم

أرسل الله النبي ﷺ ليبلغ الناس رسالته، وآتاالني صلي الله عليه وسلم جوامع الكلم، فكان كلامه ﷺ فصلاً ظاهرًا، ومنطقه واضحًا و عذبا، ما إن يقع على أذن مَنْ يسمع إليه شذرات منه، حتى يفهمه ويحفظه بمجرد سماعه؛ لأنه ﷺ كان يستعمل المعاني الكثيرة في الفاظ قليلة، ويختصر في الكلام اختصارًا ضروريا، بغير خلل بالمعنى المراد، ولا تقصير في اداء المراد من وراء الكلام، فقد ورد في البخاري والمسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يحدث حديثًا لو عدَّه العادُّ لأحصاه. [3] ولربما يتلفظ المتكلم بكلمة لا يعقلها السامع من أول مرة؛ لذلك كان ﷺ يكرر الكلمة مرارًا؛ ليعقلها السامع ويعيها، روى البخاري في صحيحه: "كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه" [4].

ورُوي أنه كان ﷺ يعرض عن كل كلام قبيح، ويكني عن الأمور المستقبحة في العرف إذا اضطره الكلام إلى ذكرها. وكان كلامه ﷺ فصيحًا بليغا، متخيَّر اللفظ، منظم الأساليب، متراصِف النظم، متناسِب الفقرات، متشاكِل الأطراف، مهذَّب الألفاظ، واضح العبارات، محكَم السبك، لم تتعلق به ركاكة. و يوجد في كلامه من زيادة غير المقصود و لا نقص حتي لا يفهم كلامه.

ولقد كان يخرج الكلام من فِيهِ ﷺ وكأنه لؤلؤ منضود، ودُرٌّ مرصوف، وتِبر مسبوك، عذبًا سائغًا، ورقيقًا رشيقًا، وسلسًا سهلاً، خفيف الوقع على السمع، وسهل الجري على الألسنة و سهل الحفظ علي الاذهان و سريع الفهم بسب الورود بطرق حسنة.

---

[1]. الترمذى . المشكاة ح(191) 384,383/1

[2]. مُحَمَّد بن الطيب أبو بكر الباقلاني ،إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف – مصر ص 237...

[3]. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم الناشر:دار إحياء التراث العربي بيروت ،2493

[4]. الترمذي؛ مُحَمَّد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي، أبو عيسى،سنن الترمذى،المحقق: مركز البحوث وتقنية المعلومات ،دار التأصيل،بيروت رقم الحديث: 3640

ولقد كان كلامه ﷺ كما يقول الجاحظ: هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثُر عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا مُحَمَّد: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[1] ، فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلَّت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْج[2] إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة،الخلابة: الخديعة برقيق الحديث. ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوى، من كلامه ﷺ كثيرًا.[3]

ويقول الرافعي عن فصاحته: أما فصاحته ﷺ فهي من السمت الذي لا يؤخذ فيه على حقه، ولا يتعلق بأسبابه متعلق، فإن العرب وإن هذبوا الكلام وحذفوه، وبالغوا في إحكامه وتجويده، إلا أن ذلك قد كان منهم عن نظر متقدم، وروية مقصودة، وكان عن تكلّف يُستعان له بأسباب الإجادة التي تسمو إليها الفطرة اللغوية فيهم، فيشبه أن يكون القول مصنوعًا، مقدَّرًا على أنهم مع ذلك لا يسلمون من عيوب الاستكراه والزلل والاضطراب، ومن حذف في موضع إطناب، وإطناب في موضع حذف، ومن كلمة غيرها أليق، ومعنى غيره أُريد، ثم هم في باب المعنى ليس لهم إلا حكمة التجربة، والأفضل ما يأخذ بعضهم عن بعض، قلَّ ذلك أو كثُر. والمعاني هي التي تعمر الكلام، وتستتبع ألفاظه، وبحسبها يكون ماؤه ورونقه وعلى مقدارها، وعلى وجه تأديتها، يكون مقدار الرأي فيه، ووجه القطع به. بيد أن رسول الله ﷺ كان أفصح العرب، على أنه لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقْط ولا استكراه، ولا تستزلُّه الفجاءة، وما يبده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع، وعن النمط الغريب،

[1]. [ص: 86]

[2]. المراد بالفَلْجُ: الظفر والفوز

[3]. الجاحظ؛ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، البيان والتبيين، المحقق :عبد السلام هارون الناشر: مكتبة الخانجي، ص124.

والطريقة المحكمة، بحيث لا يجد الناظر إلى كلامه طريقًا يتصفح منه صاعدًا أو منحدرًا. ثم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام، وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسديد، وبراعة القصد، والمجيء في كل ذلك من وراء الغاية.

ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له ﷺ إلا توفيقًا من الله وتوقيفًا؛ إذ ابتعثه للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة، ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات، وعلى اختلاف مواطنهم، فمنهم الفصيح والأفصح، ومنهم الجافي والمضطرب، ومنهم ذو اللوثة والخالص في منطقه، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم، وتخصص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب إلا من خالطهم أو دنا منهم دنو المأخذ.

فكان ﷺ يعلم كل ذلك على حقه، كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم، وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا، وأسدَّهم لفظًا، وأبينهم عبارة. ولم يعرف ذلك لغيره من العرب، ولو عُرف لقد كانوا نقلوه، وتحدثوا به، واستفاض فيهم.[1]

من ميزات البلاغة النبوية:

يَمتاز الحديث النبوي بالدقة في اختيار الكلمات الموحية بأغراض سامية نبيلة؛ من حيث محتوياتها ومدلولاتها، "فكان النبي يدقِّق اختياره من الكلمات الرنانة التي تتسلسل في آذان المخاطبين، وتروع معانيها؛ من تلك الأجراس الصوتية"[2].مثل قوله ﷺ: لأنجشة: (رُوَيْدَكَ يَا أَنْجشة، ارْفق بالقَوَارير)[3]

تبدو دقته ظاهرة واضحةً في هذا الحديث؛ حيث اختار كلمة القوارير من كلمات كثيرة توحي إلى الضَّعف، ومطالبة الحماية، ومضادة القساوة، لِما تتميز به كلمة القوارير من إيحاء لغوي، وألحان مثيرة في خلجات نفس المخاطب، وفي سُويداء قلبه، ويجد القارئ أن كلمة القوارير التي هي جمع قارورة، وهي إناء من الزجاج – قد استُعمِلت هنا وتراد بها المرأة؛ لأن الولد يقرُّ في رحمها كما يقر الماء في القارورة، أو تشبيهًا لها بالزجاج من حيث الضَّعف؛ لأن القارورة هي أضعفُ شيء، فلا تقبل اللعب ولا القوة والجبروتية، فإذا أجبرته انكسَر، فإذا انكسر فسَد، ولا يعود إلى العرجون القديم؛ قال الشاعر:

---

[1]. أخرجه البخاري في صحيحه، [باب من انتظر حتى دفن]، رقم [6209] ص48، وأخرجه النسائي في سننه، رقم [10362] ص 135.

[2]. أخرجه البخاري في صحيحه، [باب من انتظر حتى دفن]، رقم [6209] ص48، وأخرجه النسائي في سننه، رقم [10362] ص 135.

[3]. أخرجه البخاري في صحيحه، [باب من انتظر حتى دفن]، رقم [6209] ص48، وأخرجه النسائي في سننه، رقم [10362] ص 135.

إنَّ القُلوبَ إذا تَنافَرَ وُدُّهَا *** مِثْلُ الزُّجَاجَةِ قَطعُها لا يُجبرُ

هكذا النساء، وهكذا وصفهنَّ المصطفى ﷺ بالقوارير لِما بينهما من علاقة دلالية مع قرينة إيحائية معنوية، فرسولنا الحكيم، يخاطب العقول لا الأجساد، فلمعرفة مدلول هذا الحديث لا بد من استعمال العقل والتدبر.

فقد تمتاز بلاغته باستعمال كلمات تصوِّر المشهد والحادثة تصويرًا فنيًّا مؤثرًا في نفسية المخاطب، كما اختار كلمة "فَتَنْدَلِقُ" التي توحي إلى خروج الشيء بالسرعة لتصوير مشهد العالم الفاشل، الذي لا يعمَل بعلمه في الدنيا؛ حيث قال أسامة بن زيد: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "يُؤْتَى بالرجل يَوْمَ القيامةِ، فَيُلْقَى في النار، فتَندلِق أَقْتابَ بَطْنه، فَيَدُور بها كما يدور الحمار في الرَّحَى، فيجتمع إليه أهلُ النار، فيقولون: ما لك يا فلان؟ ألم تكن تأمُر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فيقول: بلى، كنتُ آمرُ بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه"[1]، فإن كلمة الاندلاق التي تدل على خروج الشيء فجأةً، تصوِّر لنا مشهد العالم الفاشل في بطن جهنم، حقًّا إن هذه لصورة رهيبة تقشعرُّ لها الأبدان، وترتعد منها القلوب، وهي صورة رجل عالم تَخرُج أقتاب بطنه من شدة العذاب، فيدور ويجول – وأمعاؤه جارية على الأرض – كما يدور الحمار إذا قيِّد على الطاحون.

فهذه هي خاصية كلامية يتصف بها كلامُه ﷺ، فالألفاظ تُطيعه كأن بيده عنانها، يتصرَّف فيها كيف يشاء ومتى شاء، ولا نعرف أن لمثل هذه الفصاحة طريقَ الاكتساب، إلا موهبة من الله؛ قال الرافعي: "ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له إلا توفيقًا من الله وتوقيفًا"[2]، فكلامه مُزينٌ وإن لم يَقصِد تزيينه، ومرصَّع وإن لم يَقصِد ترصيعَه، فهو من التكلُّف والصَّنعة بعيدٌ نزيهٌ؛ قال الرافعي: "كان أفصحَ العرب، على أنه لا يتكلَّف القول، ولا يقصد تزينَه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصَّنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبداع في المعنى الذي يريده"[3].

[1]. أخرجه المسلم في صحيحه "باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر " ج[4]، ص[2290].

[2]. مصطفى صادق الرافعي ,تاريخ آداب العرب،الناشر:مكتبة الايمان، ص 224.

[3]. مصطفى صادق الرافعي ,تاريخ آداب العرب،الناشر:مكتبة الايمان، ص 225.

المصادر والمراجع

- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
- إسماعيل حقي بن مصطفى ،روح البيان، الناشر: دار الفكر – بيروت مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم، الناشر: دار إحياء التراث العربي — بيروت
- . إسماعيل حقي بن مصطفى ،روح البيان، الناشر: دار الفكر — بيروت
- ابو زكريا يحييٰ بن شرف نووي ،المنهاج شرح صحيح مسلم،الناشر: مؤسسة قرطبة
- ابو مُحَمَّد عبد الملك بن هشام بن ايوب حميري المعروف بابن هشام، السيرة النبوية،تحقيق عمر عبدالسلام تدمري،الناشر:دارالكتب العربية،بيروت
- مُحَمَّد بن عبدالوهاب ، مختصر سيرة الرسول، الناشر:مطبعة السنة ، القاهره
- مُحَمَّد بن عبدالله خطيب تبريزي،مشكاة المصابيح،الناشر:مكتبة رحمانية ،لاهور
- حسين بن عبد الله بن مُحَمَّد الطيبي شرف الدين،شرح الطيبى على مشكاة المصابيح،تحقيق:عبدالحميد هنداوي،الناشر:مكتبة نزارمصطفي الباز،جده
- الزمخشري؛ محمود بن عمر بن مُحَمَّد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الناشر: دار المعرفة،بيروت
- ابن قيم الجوزية؛ مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين،الأمثال فى القرآن،المحقق: سعيد مُحَمَّد نمر الخطيب،دار المعرفة،بيروت
- الترمذي؛ مُحَمَّد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي، أبو عيسى،سنن الترمذى،المحقق: مركز البحوث وتقنية المعلومات ،دار التأصيل،بيروت
- مُحَمَّد بن الطيب أبو بكر الباقلاني ،إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف – مصر
- الجاحظ؛ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، البيان والتبيين، المحقق :عبد السلام هارون الناشر: مكتبة الخانجي
- مصطفى صادق الرافعي تاريخ آداب العرب،الناشر:مكتبة الايمان
- اللأوي لقمان، من خصائص أسلوب النبوي، ورقة الندوة قدمت لقسم اللغة العربية في جامعة عثمان بن فودي صكتوا نائيجيريا
- البخاري؛ مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله،صحيح البخاري، المحقق: مركز البحوث وتقنية المعلومات ،دار التأصيل،بيروت